تفسير سورة الأحقاف

هى أربع وثلاثون آية . وقيل : خمس وثلاثون وهى مكية . قال القرطبى : فى قول جميعهم . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير قالا : نزلت سورة ﴿ حم ﴾ الأحقاف بمكة . وأخرج ابن الضريس ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : أقرأنى رسول الله ﷺ سورة الأحقاف وأقرأها آخر فخالف قراءته ، فقلت : من أقرأكها ؟ قال : رسول الله ﷺ ، فقلت : والله لقد أقرأنى رسول الله ﷺ غير ذا ، فأتينا رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله، ألم تقرئنى كذا وكذا؟ قال : « بلى » ، وقال الآخر : ألم تقرئنى كذا وكذا ؟ قال : «بلى» فتمعر وجه رسول الله ﷺ ، فقال : « ليقرأ كل واحد منكما ما سمع ، فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف » (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾

قوله : ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ قد تقدم الكلام على هذا فى سورة غافر وما بعدها مستوفى، وذكرنا وجه الإعراب ، وبيان ما هو الحق من أن فواتح السور من المتشابه الذى يجب أن يوكل علمه إلى من أنزله . ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما ﴾ من المخلوقات بأسرها ﴿ إلا بالحق ﴾ هو استثناء مفرغ من أعمّ الأحوال ، أى إلا خلقاً ملتبساً بالحق الذى تقتضيه المشيئة الإلهية ، وقوله : ﴿ وأجل مسمى ﴾ معطوف على الحق ، أى إلا

(١) صححه الحاكم ٢/ ٢٢٣ ، ٢٢٤ ووافقه الذهبى .

بالحق ، وبأجل مسمى ، على تقدير مضاف محذوف ، أى وبتقدير أجل مسمى ، وهذا الأجل هو يوم القيامة ، فإنها تنتهى فيه السموات والأرض وما بينهما ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات . وقيل : المراد بالأجل المسمى : هو انتهاء أجل كل فرد من أفراد المخلوقات ، والأول أولى ، وهذا إشارة إلى قيام الساعة وانقضاء مدة الدنيا ، وأن الله لم يخلق خلقه باطلاً وعبثاً لغير شىء ، بل خلقه للثواب والعقاب ﴿ **والذين كفروا عما أنذروا معرضون** ﴾ أى عما أنذروا وخوفوا به فى القرآن من البعث والحساب والجزاء معرضون مولون غير مستعدين له ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنهم معرضون عنه غير مؤمنين به ، و « ما » فى قوله : ﴿ **ما أنذروا** ﴾ يجوز أن تكون الموصولة ، ويجوز أن تكون المصدرية .

﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله** ﴾ أى أخبرونى ما تعبدون من دون الله من الأصنام ﴿**أرونى ماذا خلقوا من الأرض** ﴾ أى أىّ شىء خلقوا منها ، وقوله : ﴿ **أرونى** ﴾ يحتمل أن يكون تأكيداً لقوله ﴿ **أرأيتم** ﴾ ، أى أخبرونى أرونى والمفعول الثانى لأرأيتم ﴿ **ماذا خلقوا** ﴾ ، ويحتمل أن لا يكون تأكيداً ، بل يكون هذا من باب التنازع؛ لأن أرأيتم يطلب مفعولاً ثانيا ، وأرونى كذلك ﴿ **أم لهم شرك فى السموات** ﴾ أم هذه هى المنقطعة المقدرة ببل والهمزة ، والمعنى: بل ألهم شركة مع الله فيها ؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿ **ائتونى بكتاب من قبل هذا**﴾ هذا تبكيت لهم وإظهار لعجزهم وقصورهم عن الإتيان بذلك ، والإشارة بقوله : ﴿ **هذا**﴾ إلى القرآن ، فإنه قد صرح ببطلان الشرك ، وأن الله واحد لا شريك له ، وأن الساعة حق لا ريب فيها ، فهل للمشركين من كتاب يخالف هذا الكتاب ، أو حجة تنافى هـذه الحجة ؟ ﴿ **أو أثارة من علم**﴾ قال فى الصحاح : ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ : بقية منه ، وكذا الأثرة بالتحريك . قال ابن قتيبة : أى بقية من علم الأولين ، وقال الفراء والمبرد : يعنى ما يؤثر عن كتب الأولين . قال الواحدى : وهو معنى قول المفسرين ، قال عطاء : أو شىء تأثرونه عن نبى كان قبل محمد ﷺ ؟ قال مقاتل : أو رواية من علم عن الأنبياء ، وقال الزجاج : ﴿ **أو أثارة** ﴾ أى علامة، والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة ، وأصل الكلمة من الأثر ، وهى الرواية ، يقال: أثرت الحديث أثره أثرة وأثارة وأثرا : إذا ذكرته عن غيرك . قرأ الجمهور : ﴿ **أثارة** ﴾ على المصدر كالسماحة والغواية ، وقرأ ابن عباس وزيد بن على وعكرمة والسلمى وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف ، وقرأ الكسائى : « أثرة » بضم الهمزة وسكون الثاء ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فى دعواكم التى تدعونها ، وهى قولكم : إن لله شريكاً ، ولم تأتوا بشىء من ذلك، فتبين بطلان قولهم لقيام البرهان العقلى والنقلى على خلافه .

﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له** ﴾ أى لا أحد أضل منه ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع ، فكيف يطمع فى الإجابة فضلا عن جلب نفع أو دفع ضر ؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين وأضل الضالين ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقوله : ﴿ **إلى يوم القيامة** ﴾ غاية لعدم الاستجابة ﴿ **وهم عن دعائهم غافلون** ﴾ الضمير الأول للأصنام،

والثانى لعابديها ، والمعنى : والأصنام التى يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسمعون ولا يعقلون لكونهم جمادات ، والجمع بين الضميرين باعتبار معنى « من » وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء ؛ لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل. ﴿ **وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء** ﴾ أى إذا حشر الناس العابدين للأصنام كان الأصنام لهم أعداء يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضا ، وقد قيل : إن الله يخلق الحياة فى الأصنام فتكذبهم . وقيل : المراد : أنها تكذبهم وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال . وأما الملائكة والمسيح وعزير والشياطين فإنهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ [القصص : ٦٣] ﴿ **وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ أى كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين ، أى جاحدين مكذبين . وقيل : الضمير فى ﴿ **كانوا** ﴾ للعابدين كما فى قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : ٢٣] والأول أولى .

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أى آيات القرآن حال كونها ﴿ **بينات** ﴾ واضحات المعانى ظاهرات الدلالات ﴿ **قال الذين كفروا للحق** ﴾ أى لأجله وفى شأنه ، وهو عبارة عن الآيات ﴿**لما جاءهم** ﴾ أى وقت أن جاءهم ﴿ **هذا سحر مبين**﴾ أى ظاهر السحرية . ﴿ **أم يقولون افتراه**﴾ أم هى المنقطعة ، أى بل أيقولون افتراه ؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من صنيعهم ، وبل للانتقال عن تسميتهم الآيات سحراً إلى قولهم : إن رسول الله افترى ما جاء به ، وفى ذلك من التوبيخ والتقريع ما لا يخفى ، ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال : ﴿ **قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا** ﴾ أى قل إن افتريته على سبيل الفرض والتقدير ، كما تدّعون ، فلا تقدرون على أن تردّوا عنى عقاب الله ؛ فكيف أفترى على الله لأجلكم ، وأنتم لا تقدرون على دفع عقابه عنى ؟ ﴿ **هو أعلم بما تفيضون فيه** ﴾ أى تخوضون فيه من التكذيب ؛ والإفاضة فى الشىء : الخوض فيه والاندفاع فيه ، يقال : أفاضوا فى الحديث ، أى اندفعوا فيه ، وأفاض البعير : إذا دفع جرته من كرشه، والمعنى : الله أعلم بما تقولون فى القرآن وتخوضون فيه من التكذيب له ، والقول بأنه سحر وكهانة ﴿ **كفى به شهيدا بينى وبينكم** ﴾ فإنه يشهد لى بأن القرآن من عنده وأنى قد بلغتكم ، ويشهد عليكم بالتكذيب والجحود ، وفى هذا وعيد شديد ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ لمن تاب وآمن وصدق بالقرآن وعمل بما فيه ، أى كثير المغفرة والرحمة بليغهما.

﴿ **قل ما كنت بدعا من الرسل** ﴾ البدع من كل شىء المبدأ ، أى ما أنا بأول رسول ، قد بعث الله قبلى كثيراً من الرسل ، قيل : البدع بمعنى : البديع ، كالخف والخفيف ، والبديع : ما لم ير له مثل ، من الابتداع وهو الاختراع، وشىء بدع بالكسر ، أى مبتدع ، وفلان بدع فى هذا الأمر ، أى بديع كذا قال الأخفش ، وأنشد قطرب :

فما أنا بدع من حوادث تعترى ... رجالا غدت من بعد بؤسى وأسعدا

وقرأ عكرمة وأبو حيوة وابن أبى عبلة : « بدعا » بفتح الدال على تقدير حذف المضاف ،

أى ما كنت ذا بدع ، وقرأ مجاهد بفتح الباء وكسر الدال على الوصف ﴿ **وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم** ﴾ أى ما يفعل بى فيما يستقبل من الزمان هل أبقى فى مكة أو أخرج منها ؟ وهل أموت أو أقتل ؟ وهل تعجل لكم العقوبة أم تمهلون؟ وهذا إنما هو فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فقد علم أنه وأمته فى الجنة ، وأن الكافرين فى النار . وقيل : إن المعنى : ما أدرى ما يفعل بى ولابكم يوم القيامة، وأنها لما نزلت فرح المشركون وقالوا : كيف نتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به ولا بنا ، وإنه لا فضل له علينا ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : ٢] والأول أولى ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يوحى** ﴾ مبنيًا للمفعول ، أى ما أتبع إلا القرآن ولا أبتدع من عندى شيئا ، والمعنى : قصر أفعاله ﷺ على الوحى لا قصر اتباعه على الوحى ﴿ **وما أنا إلا نذير مبين**﴾ أى أنذركم عقاب الله وأخوّفكم عذابه على وجه الإيضاح .

وقد أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طريق أبى سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس: ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ قال : الخط . قال سفيان : لا أعلم إلا عن النبى ﷺ ، يعنى : أن الحديث مرفوع لا موقوف على ابن عباس [١] . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كان نبى من الأنبياء يخط ، فمن صادف مثل خطه علم » [٢] . ومعنى هذا ثابت فى الصحيح ، ولأهل العلم فيه تفاسير مختلفة، ومن أين لنا أن هذه الخطوط الرملية موافقة لذلك الخط ؟ وأين السند الصحيح إلى ذلك النبىّ ؟ أو إلى نبينا ﷺ أن هذا الخط هو على صورة كذا، فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات وضلالات . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى ﷺ ﴿ **أو أثارة من علم**﴾ قال : «حسن الخط» . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم من طريق الشعبى عن ابن عباس: ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ قال : خط كان يخطه العرب فى الأرض [٣] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **أو أثارة من علم**﴾ يقول: بينة من الأمر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ **قل ما كنت بدعا من الرسل** ﴾ يقول : لست بأول الرسل ﴿ **وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم** ﴾ فأنزل الله

---

(١) أحمد ١/ ٢٢٦ والطبرانى (١٠٧٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٩٧ : « رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ، إلا أنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الخط فقال : « هو أثارة من علم » ورجال أحمد رجال الصحيح » ، وصححه الحاكم ٢/ ٤٥٤ ووافقه الذهبى .

(٢) كشف الأستار فى العلم (١٨٤) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ١٩٧ : « رواه البزار عن شيخه أبى الصباح محمد بن الليث ، وأبو الصباح محمد بن الليث ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : يخطئ ويخالف ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٨: «رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس موقوفا، قال: فى قوله عز وجل: ﴿أو أثارة من علم﴾ قال: «جودة الخط»، والحاكم فى التفسير ٢/ ٤٥٤ وسكت عنه ووافقه الذهبى .

بعد هذا : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح : ٢] ، وقوله : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ الآية [الفتح : ٥] ، فأعلم سبحانه نبيه ما يفعل به وبالمؤمنين جميعا (١) . وأخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضا أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿ **ليغفر لك الله**﴾. وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره من حديث أمّ العلاء قالت: لما مات عثمان بن مظعون قلت : رحمك الله أبا السائب شهادتى عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ : «وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإنى لأرجو له الخير ، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى ولا بكم»، قالت أمّ العلاء : فو الله لا أزكى بعده أحداً (٢).

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)** ﴾

قوله : ﴿ **قل أرأيتم** ﴾ أى أخبرونى ﴿ **إن كان من عند الله** ﴾ يعنى : ما يوحى إليه من القرآن . وقيل : المراد: محمد ﷺ ، والمعنى : إن كان مرسلاً من عند الله (٣) ، وقوله : ﴿**وكفرتم به** ﴾ فى محل نصب على الحال بتقدير قد ، وكذلك قوله : ﴿ **وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله** ﴾ ، والمعنى : أخبرونى إن كان ذلك فى الحقيقة من عند الله ، والحال أنكم قد كفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل العالمين بما أنزل الله فى التوراة على مثله ، أى القرآن من المعانى الموجودة فى التوراة ، المطابقة له من إثبات التوحيد والبعث ، والنشور وغير ذلك ، وهذه المثلية هى باعتبار تطابق المعانى وإن اختلفت الألفاظ ، وقال الجرجانى : مثل صلة، والمعنى : وشهد شاهد عليه أنه من عند الله ، وكذا قال الواحدى ، ﴿**فآمن**﴾

---

(١) ابن جرير ٢٦/ ٥ .

(٢) البخارى فى الجنائز (١٢٤٣) وفى مناقب الأنصار (٣٩٢٩) وفى التعبير (٧٠٠٣) .

(٣) فى المخطوطة : « من عند غير الله » والصواب ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله ومن جنس ما ينزله على رسله ، وهذا الشاهد من بنى إسرائيل هو عبد الله بن سلام كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم ، وفى هذا نظر فإن السورة مكية بالإجماع ، وعبد الله بن سلام كان إسلامه بعد الهجرة ، فيكون المراد بالشاهد: رجلاً من أهل الكتاب قد آمن بالقرآن فى مكة وصدقه ، واختار هذا ابن جرير ، وسيأتى فى آخر البحث ما يترجح به أنه عبد الله بن سلام ، وأن هذه الآية مدنية لا مكية ، وروى عن مسروق أن المراد بالرجل : موسى عليه السلام ، وقوله : ﴿ **واستكبرتم** ﴾ معطوف على شهد ، أى آمن الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ فحرمهم الله سبحانه الهداية لظلمهم لأنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان، ومن فقد هداية الله له ضل . وقد اختلف فى جواب الشرط ماذا هو ؟ فقال الزجاج : محذوف ، تقديره : أتؤمنون . وقيل : قوله : ﴿ **فآمن واستكبرتم** ﴾ وقيل: محذوف، تقديره: فقد ظلمتم لدلالة ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ عليه. وقيل تقديره: فمن أضل منكم، كما فى قوله: ﴿ أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ﴾ الآية [فصلت: ٥٢]، وقال أبو على الفارسى تقديره : أتأمنون عقوبة الله ؟ وقيل : التقدير : ألستم ظالمين ؟

ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أقاويلهم الباطلة فقال : ﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا** ﴾ أى لأجلهم ، ويجوز أن تكون هذه اللام هى لام التبليغ ﴿ **لو كان خيراً ما سبقونا إليه** ﴾ أى لو كان ما جاء به محمد من القرآن والنبوة خيراً ما سبقونا إليه ؛ لأنهم عند أنفسهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، ولم يعلموا أن الله سبحانه يختصّ برحمته من يشاء ، ويعزّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء ، ويصطفى لدينه من يشاء ﴿ **وإذ لم يهتدوا به** ﴾ أى بالقرآن . وقيل : بمحمد ﷺ . وقيل: بالإيمان ﴿ **فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ فجاوزوا نفى خيرية القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم كما قالوا : أساطير الأوّلين ، والعامل فى « إذ » مقدّر ، أى ظهر عنادهم ، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿ **فسيقولون** ﴾ لتضاد الزمانين، أعنى : المضى والاستقبال ولأجل الفاء أيضا. وقيل: إن العامل فيه فعل مقدّر من جنس المذكور ، أى لم يهتدوا به ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون ﴿**ومن قبله كتاب موسى**﴾ قرأ الجمهور بكسر الميم من « من » على أنها حرف جرّ وهى مع مجرورها خبر مقدّم، وكتاب موسى مبتدأ مؤخر ، والجملة فى محل نصب على الحال، أو هى مستأنفة ، والكلام مسوق لردّ قولهم : ﴿**هذا إفك قديم**﴾ فإن كونه قد تقدّم القرآن كتاب موسى، وهو التوراة ، وتوافقا فى أصول الشرائع يدل على أنه حقّ وأنه من عند الله ، ويقتضى بطلان قولهم ، وقرئ بفتح ميم « من » على أنها موصولة ونصب كتاب ، أى وآتينا من قبله كتاب موسى . ورويت هذه القراءة عن الكلبى ﴿ **إماما ورحمة** ﴾ أى يقتدى به فى الدين ورحمة من الله لمن آمن به ، وهما منتصبان على الحال ، قاله الزجاج وغيره ، وقال الأخفش : على القطع ، وقال أبو عبيدة : أى جعلناه إماما ورحمة ﴿ **وهذا كتاب مصدق** ﴾ يعنى : القرآن فإنه مصدق لكتاب موسى الذى هو إمام ورحمة ، ولغيره من كتب الله . وقيل : مصدق للنبى ﷺ ، وانتصاب ﴿ **لسانا عربيا** ﴾ على الحال الموطئة وصاحبها الضمير فى مصدّق العائد إلى كتاب ، وجوّز أبو البقاء أن يكون مفعولا لمصدّق ، والأول أولى . وقيل : هو على

حذف مضاف ، أى ذا لسان عربى ، وهو النبى ﷺ ﴿**لينذر الذين ظلموا**﴾ قرأ الجمهور : ﴿**لينذر**﴾ بالتحتية على أن فاعله ضمير يرجع إلى الكتاب ، أى لينذر الكتاب الذين ظلموا . وقيل : الضمير راجع إلى الله . وقيل : إلى الرسول ، والأول أولى ، وقرأ نافع وابن عامر والبزى بالفوقية على أن فاعله النبى ﷺ ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ،وقوله : ﴿**وبشرى للمحسنين**﴾ فى محل نصب عطفا على محل ﴿ **لينذر** ﴾ وقال الزجاج : الأجود أن يكون فى محل رفع ، أى وهو بشرى . وقيل : على المصدرية لفعل محذوف ، أى وتبشر بشرى، وقوله : ﴿ **للمحسنين** ﴾ متعلق ببشرى .

﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ أى جمعوا بين التوحيد والاستقامة على الشريعة ، وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة السجدة ﴿ **فلا خوف عليهم** ﴾ الفاء زائدة فى خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ المعنى : أنهم لا يخافون من وقوع مكروه بهم ، ولا يحزنون من فوات محبوب ، وأن ذلك مستمر دائم . ﴿ **أولئك أصحاب الجنة** ﴾ أى أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة التى هى دار المؤمنين حال كونهم ﴿ **خالدين فيها** ﴾ ، وفى هذه الآية من الترغيب أمر عظيم ، فإن نفى الخوف والحزن على الدوام ، والاستقرار فى الجنة على الأبد ، مما لا تطلب الأنفس سواه ، ولا تتشوف إلى ما عداه ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون**﴾ أى يجزون جزاء بسبب أعمالهم التى عملوها من الطاعات لله وترك معاصيه .

﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حسنا** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **حسنا** ﴾ بضم الحاء وسكون السين ، وقرأ علىّ والسلمى بفتحهما ، وقرأ ابن عباس والكوفيون : ﴿ **إحسانا** ﴾ ، وقد تقدّم فى سورة العنكبوت : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا﴾ [العنكبوت : ٨] من غير اختلاف بين القراء ، وتقدّم فى سورة الأنعام ، وسورة بنى إسرائيل : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، [الإسراء : ٢٣] فلعل هذا هو وجه اختلاف القراء فى هذه الآية ، وعلى جميع هذه القراءات فانتصابه على المصدرية ، أى وصيناه أن يحسن إليهما حسنا ، أو إحسانا . وقيل : على أنه مفعول به بتضمين وصينا معنى: ألزمنا . وقيل : على أنه مفعول له ﴿ **حملته أمه كرها ووضعته كرها** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **كرهاً** ﴾ فى الموضعين بضم الكاف ، وقرأ أبو عمرو وأهل الحجاز بفتحها . قال الكسائى : وهما لغتان بمعنى واحد . قال أبو حاتم : الكره بالفتح لا يحسن ؛ لأنه الغضب والغلبة ، واختار أبو عبيدة قراءة الفتح قال : لأن لفظ الكره فى القرآن كله بالفتح إلا التى فى سورة البقرة : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، وقيل : إن الكره بالضم ما حمل الإنسان على نفسه ، وبالفتح ما حمل على غيره ، وإنما ذكر سبحانه حمل الأمّ ووضعها ؛ تأكيدا لوجوب الإحسان إليها الذى وصى به ، والمعنى: أنها حملته ذات كره ووضعته ذات كره . ثم بين سبحانه مدّة حمله وفصاله فقال : ﴿**وحمله وفصاله ثلاثون شهرا**﴾ أى مدتهما هذه المدة من عند ابتداء حمله إلى أن يفصل من الرضاع ، أى يفطم عنه .

وقد استدل بهذه الآية على أن أقل الحمل ستة أشهر ؛ لأن مدة الرضاع سنتان ، أى مدة

الرضاع الكامل كما فى قوله : ﴿ حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة ﴾ [البقرة : ٢٣٣] فذكر سبحانه فى هذه الآية أقل مدة الحمل ، وأكثر مدة الرضاع ، وفى هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم آكد من حق الأب ؛ لأنها حملته بمشقة ، ووضعته بمشقة ، وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب ، ولم يشاركها الأب فى شىء من ذلك .

قرأ الجمهور : ﴿ **وفصاله** ﴾ بالألف ، وقرأ الحسن ويعقوب وقتادة والجحدرى : «وفصله» بفتح الفاء وسكون الصاد بغير ألف ، والفصل والفصال بمعنى ، كالفطم والفطام والقطف والقطاف ﴿ **حتى إذا بلغ أشدّه** ﴾ أى بلغ استحكام قوّته وعقله ، وقد مضى تحقيق الأشد مستوفى ، ولابد من تقدير جملة تكون حتى غاية لها، أى عاش واستمرت حياته حتى بلغ أشده، قيل : بلغ ثمانى عشرة سنة . وقيل : الأشد : الحلم قاله الشعبى وابن زيد . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين ، والأول أولى لقوله : ﴿ **وبلغ أربعين سنة** ﴾ فإن هذا يفيد أن بلوغ الأربعين هو شىء وراء بلوغ الأشد . قال المفسرون : لم يبعث الله نبيا قط إلا بعد أربعين سنة ﴿**قال رب أوزعنى** ﴾ أى ألهمنى . قال الجوهرى : استوزعت الله فأوزعنى ، أى استلهمته فألهمنى ﴿ **أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ**﴾ أى ألهمنى شكر ما أنعمت به علىّ من الهداية ، وعلى والدىّ من التحنن علىّ منهما حين ربيانى صغيراً . وقيل : أنعمت علىّ بالصحة والعافية ، وعلى والدىّ بالغنى والثروة، والأولى عدم تقييد النعمة عليه وعلى أبويه بنعمة مخصوصة ﴿ **وأن أعمل صالحا ترضاه** ﴾ أى وألهمنى أن أعمل عملا صالحا ترضاه منى ﴿**وأصلح لى فى ذريتى** ﴾ أى اجعل ذريتى صالحين راسخين فى الصلاح متمكنين منه . وفى هذه الآية دليل على أنه ينبغى لمن بلغ أربعين سنة أن يستكثر من هذه الدعوات ، وقد روى أنها نزلت فى أبى بكر كما سيأتى فى آخر البحث ﴿ **إنى تبت إليك** ﴾ من ذنوبى ﴿ **وإنى من المسلمين** ﴾ أى المستسلمين لك المنقادين لطاعتك المخلصين لتوحيدك .

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الإنسان المذكور ، والجمع لأنه يراد به الجنس وهو مبتدأ، وخبره : ﴿ **الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا** ﴾ من أعمال الخير فى الدنيا ، والمراد بالأحسن : الحسن كقوله : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم ﴾ [الزمر : ٥٥] وقيل : إن اسم التفضيل على معناه ، ويراد به : ما يثاب العبد عليه من الأعمال ، لا ما لا يثاب عليه كالمباح فإنه حسن وليس بأحسن ﴿ **ونتجاوز عن سيئاتهم** ﴾ فلا نعاقبهم عليها . قرأ الجمهور : «يتقبل ويتجاوز » على بناء الفعلين للمفعول ، وقرأ حمزة والكسائى بالنون فيهما على إسنادهما إلى الله سبحانه ، والتجاوز : الغفران ، وأصله من جزت الشىء : إذا لم تقف عليه، ومعنى ﴿**فى أصحاب الجنة**﴾ : أنهم كائنون فى عدادهم منتظمون فى سلكهم ، فالجارّ والمجرور فى محل النصب على الحال كقولك : أكرمنى الأمير فى أصحابه ، أى كائناً فى جملتهم . وقيل: إن « فى » بمعنى « مع » ، أى مع أصحاب الجنة . وقيل : إنهما خبر مبتدأ محذوف ، أى هم فى أصحاب الجنة ﴿**وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾ وعد الصدق مصدر مؤكد

لمضمون الجملة السابقة ؛ لأن قوله : ﴿ **أولئك الذين نتقبل عنهم** ﴾ إلخ فى معنى الوعد بالتقبل والتجاوز ، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف ، أى وعدهم الله وعد الصدق الذى كانوا يوعدون به على ألسن الرسل فى الدنيا.

وقد أخرج أبو يعلى وابن جرير والطبرانى ، والحاكم وصححه عن عوف بن مالك الأشجعى قال : انطلق النبى ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «يامعشر اليهود ، أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، يحطّ الله تعالى عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه » ، فسكتوا ، فما أجابه منهم أحد ، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا، فقال : « أبيتم ، فو الله لأنا الحاشر ، وأنا العاقب ، وأنا المقفى آمنتم أو كذبتم » ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج ، فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أىّ رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود ، فقالوا : والله ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك ، قال : فإنى أشهد بالله أنه النبىّ الذى تجدونه مكتوباً فى التوراة والإنجيل ، قالوا : كذبت ، ثم ردّوا عليه وقالوا شرا، فقال رسول الله ﷺ : « كذبتم لن يقبل منكم قولكم » ، فخرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام ، فأنزل الله : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله** ﴾ إلى قوله : ﴿**لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ وصححه السيوطى (١) . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت : ﴿ **وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله** ﴾ (٢) . وأخرج الترمذى وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزل فىّ آيات من كتاب الله ، نزلت فىّ ﴿ **وشهد شاهد من بنى إسرائيل** ﴾ ، ونزل فىّ ﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ [الرعد : ٤٣] (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿**وشهد شاهد من بنى إسرائيل** ﴾ قال : عبد الله بن سلام (٤) . وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وفيه دليل على أن هذه الآية مدنية ، فيخصص بها عموم قولهم إن سورة الأحقاف كلها مكية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : قال ناس من المشركين نحن أعزّ ونحن ونحن ، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان ، فنزل : ﴿**وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه** ﴾ (٥) . وأخرج ابن المنذر عن عون ابن أبى شداد قال : كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله : يقال لها : زنيرة ، وكان عمر

(١) ابن جرير ٢٦/ ٨ ، ٩ والطبرانى ١٨/ ٤٦ ، ٤٧ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٨ ، ١٠٩ : « ورجاله رجال الصحيح » وصححه الحاكم ٣/ ٤١٥ ، ٤١٦ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٢) البخارى فى المناقب (٣٨١٢) ومسلم فى الفضائل (٢٤٨٣/١٤٧) والنسائى فى الكبرى فى المناقب (٨٢٥٢).

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٥٦) وفى المناقب (٣٨٠٣) وقال : « حديث غريب » وابن جرير ٢٦/ ٧ .

(٤) ابن جرير ٢٦/ ٨ . (٥) ابن جرير ٢٦/ ٩ .

يضربها على الإسلام ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة ، فأنزل الله فى شأنها : ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ الآية . وأخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « بنو غفار وأسلم كانوا لكثير من الناس فتنة ، يقولون : لو كان خيراً ما جعلهم الله أوّل الناس فيه»(١) .

وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزل قوله : ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه**﴾ الآية إلى قوله : ﴿ **وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾ فى أبى بكر الصديق . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن نافع بن جبير أن ابن عباس أخبره قال : إنى لصاحب المرأة التى أتى بها عمر وضعت لستة أشهر فأنكر الناس ذلك ، فقلت لعمر: لم تظلم ؟ قال : كيف ؟ قلت اقرأ : ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهرا** ﴾ ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ [البقرة: ٢٣٣] كم الحول ؟ قال : سنة ، قلت : كم السنة ؟ قال : اثنا عشر شهراً ، قلت : فأربعة وعشرون شهراً حولان كاملان ، ويؤخر الله من الحمل ما شاء ، ويقدم ما شاء ، فاستراح عمر إلى قولى . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهراً ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا وضعت لستة أشهر فحولان كاملان ، لأن الله يقول : ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهرا** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال : أنزلت هذه الآية فى أبى بكر الصدّيق ﴿ **حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعنى** ﴾ الآية ، فاستجاب الله له فأسلم والداه جميعا ، وإخوته ، وولده كلهم ، ونزلت فيه أيضا ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ [الليل : ٥] إلى آخر السورة .

﴿ **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)** ﴾

لما ذكر سبحانه من شكر نعمة الله سبحانه عليه وعلى والديه ، ذكر من قال لهما قولا يدلّ على التضجر منهما عند دعوتهما له إلى الإيمان فقال : ﴿ **والذى قال لوالديه أف لكما** ﴾ الموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ، ولهذا أخبر عنه بالجمع ، و ﴿ **أف** ﴾ كلمة

---

(١) الطبرانى (٧٠٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٤٩ : « رواه الطبرانى والبزار وفيه من لم أعرفهم » .

تصدر عن قائلها عند تضجره من شيء يرد عليه . قرأ نافع وحفص : ﴿أفّ﴾ بكسر الفاء مع التنوين ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وابن محيصن بفتحها من غير تنوين ، وقرأ الباقون بكسرمن غير تنوين وهى لغات ، وقد مضى بيان الكلام فى هذا فى سورة بنى إسرائيل . واللام فى قوله: ﴿ **لكما** ﴾ لبيان التأفيف ، أى التأفيف لكما كما فى قوله : ﴿هيت لك﴾ [يوسف : ٢٣] ، قرأ الجمهور : ﴿**أتعدانني**﴾ بنونين مخففتين ، وفتح ياءه أهل المدينة ومكة وأسكنها الباقون ، وقرأ أبوحيوة والمغيرة وهشام بإدغام إحدى النونين فى الأخرى ، ورويت هذه القراءة عن نافع ، وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر وعبد الوارث عن أبى عمرو بفتح النون الأولى كأنهم فروا من توالى مثلين مكسورين . وقرأ الجمهور : ﴿ **أن أخرج** ﴾ بضم الهمزة وفتح الراء مبنيا للمفعول ، وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الهمزة وضم الراء ،مبنيا للفاعل ، والمعنى : أتعدانني أن أبعث بعد الموت ، وجملة : ﴿ **وقد خلت القرون من قبلى** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أن قد مضت القرون من قبلى فماتوا ولم يبعث منهم أحد ، وهكذا جملة : ﴿ **وهما يستغيثان الله** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنهما يستغيثان الله له ، ويطلبان منه التوفيق إلى الإيمان ، واستغاث يتعدى بنفسه وبالباء ، يقال : استغاث الله واستغاث به ، وقال الرازى : معناه : يستغيثان بالله من كفره ، فلما حذف الجار وصل الفعل . وقيل : الاستغاثة : الدعاء فلا حاجة إلى الباء . قال الفراء : يقال أجاب الله دعاءه وغواثه، وقوله: ﴿ **ويلك** ﴾ هو بتقدير القول ، أى يقولان له ويلك ، وليس المراد به: الدعاء عليه ، بل الحث له على الإيمان ، ولهذا قالا له : ﴿ **آمن إن وعد الله حق** ﴾ أى آمن بالبعث إن وعد الله حقّ لا خلف فيه ﴿ **فيقول** ﴾ عند ذلك مكذبا لما قالاه : ﴿ **ما هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ أى ما هذا الذى تقولانه من البعث إلا أحاديث الأولين وأباطيلهم التى سطروها[1] فى الكتب . قرأ الجمهور : ﴿ **إن وعد الله** ﴾ بكسر إن على الاستئناف أو التعليل ، وقرأ عمر بن فايد والأعرج بفتحها ، على أنها معمولة لآمن بتقدير الباء ، أى آمن بأن وعد الله بالبعث حق ﴿**أولئك الذين حق عليهم القول** ﴾ أى أولئك القائلون هذه المقالات هم الذين حقّ عليهم القول ، أى وجب عليهم العذاب بقوله سبحانه لإبليس : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [ص : ٨٥] كما يفيده قوله : ﴿ **فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس** ﴾ ، وجملة : ﴿**إنهم كانوا خاسرين** ﴾ تعليل لما قبله ، وهذا يدفع كون سبب نزول الآية عبد الرحمن بن أبى بكر ، وأنه الذى قال لوالديه ما قال ، فإنه من أفاضل المؤمنين ، وليس ممن حقت عليه كلمة العذاب ، وسيأتى بيان سبب النزول فى آخر البحث إن شاء الله .

﴿ **ولكلّ درجات مما عملوا** ﴾ أى لكلّ فريق من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم . قال ابن زيد : درجات أهل النار فى هذه الآية

(١) فى المخطوطة : « سطرونها » والصحيح ما أثبتناه .

تذهب سفلا ، ودرجات أهل الجنة تذهب علواً ﴿**وليوفيهم أعمالهم**﴾ أى جزاء أعمالهم . قرأ الجمهور : « لنوفيهم » بالنون . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء التحتية ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى ، واختار الثانية أبو حاتم ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ أى لا يزاد مسىء ولا ينقص محسن ، بل يوفى كل فريق ما يستحقه من خير وشرّ ، والجملة فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة مقررة لما قبلها . ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى اذكر لهم يا محمد يوم ينكشف الغطاء فينظرون إلى النار ويقربون منها . وقيل : معنى ﴿**يعرضون**﴾ : يعذبون ، من قولهم : عرضه على السيف . وقيل : فى الكلام قلب . والمعنى : تعرض النار عليهم ﴿ **أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا** ﴾ أى يقال لهم ذلك ، قيل : وهذا القدر هو الناصب للظرف ، والأوّل أولى . قرأ الجمهور : ﴿ **أذهبتم** ﴾ بهمزة واحدة ، وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير بهمزتين مخففتين ، ومعنى الاستفهام : التقريع والتوبيخ . قال الفراء والزجاج : العرب توبخ بالاستفهام وبغيره ، فالتوبيخ كائن على القراءتين . قال الكلبى : المراد بالطيبات : اللذات وما كانوا فيه من المعايش ﴿**واستمتعتم بها** ﴾ أى بالطيبات ، والمعنى : أنهم اتبعوا الشهوات واللذات التى فى معاصى الله سبحانه ، ولم يبالوا بالذنب تكذيباً منهم لما جاءت به الرّسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب ﴿ **فاليوم تجزون عذاب الهون** ﴾ أى العذاب الذى فيه ذلّ لكم وخزى عليكم . قال مجاهد وقتادة : الهون : الهوان بلغة قريش ﴿ **بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق** ﴾ أى بسبب تكبركم عن عبادة الله والإيمان به وتوحيده ﴿ **وبما كنتم تفسقون** ﴾ أى تخرجون عن طاعة الله وتعملون بمعاصيه ، فجعل السبب فى عذابهم أمرين : التكبر عن اتباع الحق ، والعمل بمعاصى الله سبحانه وتعالى، وهذا شأن الكفرة فإنهم قد جمعوا بينهما .

وقد أخرج البخارى عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز استعمله معاوية ابن أبى سفيان ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه . فقال عبد الرحمن ابن أبى بكر شيئا ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أنزل فيه : ﴿ **والذى قال لوالديه أفّ لكما** ﴾ فقالت عائشة : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عُذرى [1] . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن المنذر، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن محمد بن زياد قال : لما بايع معاوية لابنه ، قال مروان : سنة أبى بكر وعمر، فقال عبد الرحمن : سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان : هذا الذى قال الله فيه : ﴿**والذى قال لوالديه أف لكما** ﴾ الآية . فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب مروان والله ما هو به، ولو شئت أن أسمى الذى نزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان فى صلبه، فمروان من لعنة الله [2] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : هذا ابن

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٢٧) .

(٢) النسائى فى التفسير (٥١١) وصححه الحاكم ٤/ ٤٨١ على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى إلا أنه =

لأبى بكر [١] . وأخرج نحوه أبو حاتم عن السدى ، ولا يصح هذا كما قدمنا .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾

قوله : ﴿ واذكر أخا عاد ﴾ أى واذكر يا محمد لقومك أخا عاد ، وهو هود بن عبد الله ابن رباح ، كان أخاهم فى النسب ، لافى الدين ، وقوله : ﴿ إذ أنذر قومه ﴾ بدل اشتمال منه ، أى وقت إنذاره إياهم ﴿ بالأحقاف ﴾ وهى ديار عاد ، جمع حقف ، وهو الرمل العظيم المستطيل المعوج قاله الخليل وغيره ، وكانوا قهروا أهل الأرض بقوتهم ، والمعنى : أن الله سبحانه أمره أن يذكر لقومه قصتهم ليتعظوا ويخافوا . وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصتهم مع هود ليقتدى به ويهون عليه تكذيب قومه . قال عطاء : الأحقاف : رمال بلاد الشحر ، وقال مقاتل : هى باليمن فى حضرموت ، وقال ابن زيد : هى رمال مبسوطة مستطيلة كهيئة الجبال ، ولم تبلغ أن تكون جبالا ﴿ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾ أى وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده كذا قال الفراء وغيره ، وفى قراءة ابن مسعود : « من بين يديه ومن بعده » والجملة فى محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون معترضة بين إنذار هود وبين قوله لقومه : ﴿ إنى أخاف عليكم ﴾ والأوّل أولى ، والمعنى : أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره ، ثم رجع إلى كلام هود لقومه ، فقال حاكياً عنه :

= قال : « فيه انقطاع ، محمد لم يسمع من عائشة » ، وقال ابن كثير ٦/ ٢٨٤ : « وهذا عام فى كل من قال هذا ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما فقوله ضعيف ؛ لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه » ولفظ النسائى والحاكم « فمروانُ فَضَضٌ مِنْ لعنة الله » ، ومعنى فَضَضٌ : قطعة وطائفة منها . النهاية ٣/ ٤٥٤ .

(١) ابن جرير ٢٦/ ١٣ .

﴿إنّى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ وقيل : إن جعل تلك الجملة اعتراضية أولى بالمقام وأوفق بالمعنى . ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ أى لتصرفنا عن عبادتها ، وقيل : لتزيلنا . وقيل : لتمنعنا ، والمعنى متقارب ، ومنه قول عروة بن أذينة [1] :

إن تك عن حسن الصنيعة مأفو ... كا فـفى آخـرين قـد أفـكوا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت فى قوم قد صرفوا عن ذلك . ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب العظيم ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فى وعدك لنا به . ﴿ قال إنما العلم عند الله ﴾ أى إنما العلم بوقت مجيئه عند الله لا عندى ﴿ وأبلغكم ما أرسلت به ﴾ إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار ، فأما العلم بوقت مجىء العذاب فما أوحاه إلى ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ حيث بقيتم مصرّين على كفركم ولم تهتدوا بما جئتكم به ، بل اقترحتم علىّ ما ليس من وظائف الرسل . ﴿ فلما رأوه عارضا ﴾ الضمير يرجع إلى « ما » فى قوله : ﴿ بما تعدنا﴾ . وقال المبرد والزجاج : الضمير فى ﴿ رأوه ﴾ يعود إلى غير مذكور وبينه قوله : ﴿ عارضا ﴾ فالضمير يعود إلى السحاب ، أى فلما رأوا السحاب عارضا ، فـ ﴿عارضا﴾ نصب على التكرير ، يعنى : التفسير ، وسمى السحاب عارضا ؛ لأنه يبدو فى عرض السماء ، قال الجوهرى : العارض : السحاب يعترض فى الأفق ، ومنه قوله: ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾ وانتصاب ﴿ عارضاً ﴾ على الحال أو التمييز ﴿ مستقبل أوديتهم ﴾ أى متوجها نحو أوديتهم . قال المفسرون : كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من واد لهم ، يقال له: المعتب ، فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا ، و ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ أى غيم فيه مطر ، وقوله : ﴿مستقبل أوديتهم ﴾ صفة لعارض ؛ لأن إضافته لفظية لا معنوية ، فصح وصف النكرة به ، وهكذا ممطرنا ، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود ، فقال : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ يعنى : من العذاب حيث قالوا : ﴿فأتنا بما تعدنا ﴾ ، وقوله : ﴿ ريح ﴾ بدل من ما ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وجملة : ﴿فيها عذاب أليم﴾ صفة لريح ، والريح التى عذبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذى رأوه .

﴿ تدمر كل شىء بأمر ربها ﴾ هذه الجملة صفة ثانية لريح ، أى تهلك كل شىء مرت به من نفوس عاد وأموالها ، والتدمير : الإهلاك ، وكذا الدمار . وقرئ : « يدمر » بالتحتية مفتوحة وسكون الدال وضم الميم ورفع كل على الفاعلية من دمر دمارا ، ومعنى ﴿ بأمر ربها ﴾: أن ذلك بقضائه وقدره ﴿ فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ﴾ أى لا ترى أنت يامحمد أو كل من يصلح للرؤية إلا مساكنهم بعد ذهاب أنفسهم وأموالهم . قرأ الجمهور : ﴿ لا ترى ﴾ بالفوقية على الخطاب ، ونصب مساكنهم . وقرأ حمزة وعاصم بالتحتية مضمومة مبنيا للمفعول ورفع

---

(١) هو : عروة بن يحيى ـ ولقبه أُذَيْنَة ـ بن مالك بن الحارث الليثى ، شاعر غزل مقدم . من أهل المدينة وهو معدود من الفقهاء والمحدثين ، سمع ابن عمر، وروى عنه مالك فى الموطأ ، والشعر أغلب عليه ، وتوفى فى حدود الثلاثين ومائة . الأعلام ٤/ ٢٢٧ فوات الوفيات ٢/ ٤٥١ .

مساكنهم . قال سيبويه : معناه : لا يرى أشخاصهم إلا مساكنهم ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الثانية . قال الكسائى والزجاج : معناها : لا يرى شيء إلا مساكنهم فهى محمولة على المعنى كما تقول : ما قام إلا هند ، والمعنى : ما قام أحد إلا هند ، وفى الكلام حذف، والتقدير: فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴿ **كذلك نجزى القوم المجرمين**﴾ أى مثل ذلك الجزاء نجزى هؤلاء ، وقد مرّ بيان هذه القصة فى سورة الأعراف . ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه** ﴾ قال المبرد : ما فى قوله : ﴿ **فيما** ﴾ بمنزلة « الذى » ، و« إن » بمنزلة «ما»، يعنى النافية ، وتقديره : ولقد مكناهم فى الذى ما مكناكم فيه من المال وطول العمر وقوة الأبدان . وقيل « إن » زائدة ، وتقديره : ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه ، وبه قال [1] القتيبى، ومثله قول الشاعر :

فما إن طبنا [2] جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا [3]

والأوّل أولى ؛ لأنه أبلغ فى التوبيخ لكفار قريش وأمثالهم ﴿ **وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة** ﴾ أى إنهم أعرضوا عن قبول الحجة والتذكر مع ما أعطاهم الله من الحواس التى بها تدرك الأدلة ، ولهذا قال : ﴿ **فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء** ﴾ أى فما نفعهم ما أعطاهم الله من ذلك حيث لم يتوصلوا به إلى التوحيد ، وصحة الوعد والوعيد ، وقد قدمنا من الكلام على وجه إفراد السمع وجمع البصر ما يغنى عن الإعادة ، و « من » فى: ﴿**من شيء**﴾ زائدة ، والتقدير : فما أغنى عنهم شيء من الإغناء ، ولا نفعهم بوجه من وجوه النفع ﴿ **إذ كانوا يجحدون بآيات الله** ﴾ الظرف متعلق بـ ﴿ **أغنى** ﴾ ، وفيها معنى التعليل ، أى لأنهم كانوا يجحدون ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أى أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء حيث قالوا : ﴿ **فائتنا بما تعدنا** ﴾ ﴿ **ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى** ﴾ الخطاب لأهل مكة ، والمراد بما حولهم من القرى : قرى ثمود ، وقرى لوط ونحوهما مما كان مجاورا لبلاد الحجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم ﴿ **وصرّفنا الآيات لعلهم يرجعون**﴾ أى بينا الحجج ونوعناها لكى يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا .

ثم ذكر سبحانه أنه لم ينصرهم من عذاب الله ناصر فقال : ﴿ **فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة**﴾ أى فهلا نصرهم آلهتهم التى تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : ١٨] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم . قال الكسائى : القربان :كل ما يتقرب به إلى الله من طاعة ونسيكة ، والجمع قرابين كالرهبان

---

(١) فى المطبوعة : « وبه قال قال القتيبى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ، ومن القرطبى ٩/ ٦٠٢٨ .

(٢) الطب هنا : الشأن والعادة ، والشهوة والإرادة . القاموس المحيط ١٣٩ .

(٣) البيت لفروة بن مُسَيْك بن الحارث بن سلمة الغطيفى المرادى ، قال البخارى :« له صحبة ، روى عنه أبو سبرة ، يعد فى الكوفيين ، وأصله من اليمن ، ووفد على النبى ﷺ سنة تسع واستعمله على مراد ومذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد فكان معه فى بلاده حتى توفى النبى ﷺ وقاتل أهل الردة ، وكان منهم عمرو بن معدى كرب . الإصابة ٣/ ٢٠٥ والأعلام ٥/ ١٤٣ .

والرهابين ، وأحد مفعولى ﴿ **اتخذوا** ﴾ ضمير راجع إلى الموصول ، والثانى آلهة ، و ﴿ **قربانا** ﴾ حال ، ولا يصح أن يكون ﴿ **قربانا** ﴾ مفعولا ثانيا ، و ﴿ **آلهة** ﴾ بدلا منه لفساد المعنى ، وقيل: يصح ذلك ولا يفسد المعنى ، ورجحه ابن عطية وأبو البقاء وأبو حيان ، وأنكر أن يكون فى المعنى فساد على هذا الوجه ﴿ **بل ضلوا عنهم** ﴾ أى غابوا عن نصرهم ولم يحضروا عند الحاجة إليهم . وقيل : بل هلكوا . وقيل : الضمير فى ضلوا راجع إلى الكفار ، أى تركوا الأصنام وتبرؤوا منها ، ، والأول أولى . والإشارة بقوله : ﴿ **وذلك** ﴾ إلى ضلال آلهتهم ، والمعنى : وذلك الضلال والضياع أثر ﴿ **إفكهم** ﴾ الذى هو اتخاذهم إياها آلهة وزعمهم أنها تقربهم إلى الله. قرأ الجمهور : ﴿ **إفكهم** ﴾ بكسر الهمزة وسكون الفاء مصدر أفك يأفك إفكا ، أى كذبهم، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد بفتح الهمزة والفاء والكاف على أنه فعل ، أى ذلك القول صرفهم عن التوحيد ، وقرأ عكرمة بفتح الهمزة وتشديد الفاء ، أى صيرهم آفكين . قال أبو حاتم : يعنى قلبهم عما كانوا عليه من النعيم ، وروى عن ابن عباس أنه قرأ بالمدّ وكسر الفاء بمعنى : صارفهم ، ﴿ **وما كانوا يفترون** ﴾ معطوف على ﴿ **إفكهم** ﴾ أى وأثر افترائهم أو أثر الذى كانوا يفترونه ، والمعنى : وذلك إفكهم، أى كذبهم الذى كانوا يقولون إنها تقربهم إلى الله وتشفع لهم ﴿ **وما كانوا يفترون** ﴾ أى يكذبون أنها آلهة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأحقاف : جبل بالشام . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته [(١)] ، إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك فى وجهه ، قلت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية . قال : « يا عائشة ، وما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا : ﴿ **هذا عارض ممطرنا** ﴾ » [(٢)] . وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » ، فإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرى عنه، فسألته فقال : « لا أدرى ، لعله كما قال قوم عاد :﴿ **هذا عارض ممطرنا** ﴾ » [(٣)] . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب السحاب ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم** ﴾ قالوا :غيم فيه مطر ، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا

---

(١) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق ، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم ، والجمع : لهوات . القاموس المحيط ٨/ ١٧ . والنهاية ٤/ ٢٨٤ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٨٢٨ ، ٤٨٢٩) ومسلم فى صلاة الاستسقاء (٨٩٩/ ١٦) والبيهقى ٣/ ٣٦٠ .

(٣) مسلم فى صلاة الاستسقاء (٨٩٩/ ١٤ ، ١٥) والترمذى فى التفسير (٣٢٥٧) وقال : « حديث حسن » والنسائى فى التفسير (٥١٢) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٩١) .

من رجالهم ومواشيهم تطير بين السماء والأرض مثل الريش دخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح ففتحت أبوابهم ومالت عليهم بالرمل ، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام حسوما لهم أنين ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل وطرحتهم فى البحر ، فهو [1] قوله : ﴿ **فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : ما أرسل الله على عاد من الريح إلا قدر خاتمى هذا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه** ﴾ يقول : لم نمكنكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية قال : عاد مكنوا فى الأرض أفضل مما مكنت فيه هذه الأمة ، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأطول أعماراً .

﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)** ﴾

لما بين سبحانه أن فى الإنس من آمن ، وفيهم من كفر . بين أيضا فى الجن كذلك ، فقال: ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن** ﴾ العامل فى الظرف مقدر ، أى واذكر إذ صرفنا ، أى وجهنا إليك نفرا من الجن ، وبعثناهم إليك ، وقوله : ﴿ **يستمعون القرآن** ﴾ فى محل نصب صفة ثانية لـ ﴿ **نفرا** ﴾ أو حال ؛ لأن النكرة قد تخصصت بالصفة الأولى ﴿ **فلما حضروه** ﴾ أى حضروا القرآن عند تلاوته . وقيل : حضروا النبىّ ﷺ ، ويكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأول أولى ﴿ **قالوا أنصتوا** ﴾ أى قال بعضهم لبعض : اسكتوا ، أمروا بعضهم بعضا بذلك لأجل أن يسمعوا ﴿ **فلما قضى** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **قضى** ﴾ مبنيا للمفعول، أى فرغ من تلاوته ، وقرأ حبيب بن عبيد الله بن الزبير ولاحق بن حميد وأبو مجلز على البناء للفاعل ، أى فرغ النبى ﷺ من تلاوته ، والقراءة الأولى تؤيد أن الضمير فى

(١) فى المطبوعة : « فقهوا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

﴿حضروه﴾ للقرآن ، والقراءة الثانية تؤيد أنه للنبى ﷺ ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ أى انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن ومحذرين لهم ، وانتصاب ﴿ منذرين ﴾ على الحال المقدّرة ، أى مقدّرين الإنذار ، وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبى ﷺ ، وسيأتى فى آخر البحث بيان ذلك . ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ﴾ يعنون القرآن ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : فوصلوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا . قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا ﴿مصدقا لما بين يديه ﴾ أى لما قبله من الكتب المنزلة ﴿ يهدى إلى الحق ﴾ أى إلى الدين الحق ﴿ وإلى طريق مستقيم ﴾ أى إلى طريق الله القويم . قال مقاتل: لم يبعث الله نبيا إلى الجنّ والإنس قبل محمد ﷺ .

﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ﴾ يعنون : محمدا ﷺ أو القرآن ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أى بعضها ، وهوماعدا حقّ العباد . وقيل : إن « من » هنا لابتداء الغاية ، والمعنى : أنه يقع ابتداء الغفران من الذنوب ثم ينتهى إلى غفران ترك ماهو الأولى ، وقيل : هى زائدة ﴿ويجركم من عذاب أليم ﴾ وهو عذاب النار ، وفى هذه الآية دليل على أن حكم الجن حكم الإنس فى الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهى ، وقال الحسن : ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، وبه قال أبو حنيفة ، والأول أولى . وبه قال مالك والشافعى وابن أبى ليلى . وعلى القول الأوّل ، فقال القائلون به : أنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم : كونوا ترابا، كما يقال للبهائم، والثانى أرجح . وقد قال الله سبحانه فى مخاطبة الجن والإنس : ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : ٤٦ ، ٤٧] فامتّن سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، ولاينافى هذا الاقتصار ها هنا على ذكر إجارتهم من عذاب أليم ، ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل، فكيف لا يجازى محسنهم بالجنة وهو مقام فضل ؟ ومما يؤيد هذا أيضاً ما فى القرآن الكريم فى غير موضع أن جزاء المؤمن الجنة ، وجزاء من عمل الصالحات الجنة ، وجزاء من قال : لا إله إلا الله الجنة، وغير ذلك مما هو كثير فى الكتاب والسنة .

وقد اختلف أهل العلم هل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم أم لا ؟ وظاهر الآيات القرآنية أن الرسل من الإنس فقط كما فى قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ﴾ [يوسف : ١٠٩] وقال : ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾ [الفرقان : ٢٠] وقال سبحانه فى إبراهيم الخليل : ﴿ وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ﴾ [العنكبوت : ٢٧] فكل نبىّ بعثه الله بعد إبراهيم فهو من ذريته ، وأما قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فقيل : المراد من مجموع الجنسين وصدق على أحدهما وهم الإنس كقوله : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [الرحمن : ٢٢] أى من أحدهما .

﴿ ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ﴾ أى لا يفوت الله ولا يسبقه ، ولا

يقدر على الهرب منه ؛ لأنه وإن هرب كل مهرب فهو فى الأرض لا سبيل له إلى الخروج منها ، وفى هذا ترهيب شديد ، ﴿ **وليس له من دونه أولياء** ﴾ أى أنصار يمنعونه من عذاب الله ، بين سبحانه بعد استحالة نجاته بنفسه ، استحالة نجاته بواسطة غيره ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى من لا يجب داعى الله ، وأخبر أنهم ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾ أى ظاهر واضح . ثم ذكر سبحانه دليلا على البعث ، فقال : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض**﴾ الرؤية هنا هى القلبية التى بمعنى العلم ، والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدّر ، أى ألم يتفكروا ولم يعلموا أن الذى خلق هذه الأجرام العظام من السموات والأرض ابتداء ﴿ **ولم يعى بخلقهنّ**﴾ أى لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه ، يقال : عىّ بالأمر وعيى : إذا لم يهتد لوجهه ، ومنه قول الشاعر :

عيوا بأمرهم كما عيت ببيضها الحمامة (١)

قرأ الجمهور : ﴿ **ولم يعى** ﴾ بسكون العين وفتح الياء مضارع عيى . وقرأ الحسن بكسر العين وسكون الياء . ﴿**بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد ، كما فى قوله : ﴿ وكفى بالله شهيدا﴾ [النساء: ١٦٦] قال الكسائى والفراء والزجاج: العرب تدخل الباء مع الجحد والاستفهام ، فتقول : ما أظنك بقائم ، والجار والمجرور فى محل رفع على أنها خبر لأن ، وقرأ ابن مسعود وعيسى بن عمر والأعرج والجحدرى وابن أبى إسحاق ويعقوب وزيد بن علىّ : « يقدر » على صيغة المضارع ، واختار أبو عبيد القراءة الأولى ، واختار أبو حاتم القراءة الثانية قال : لأن دخول الباء فى خبر أن قبيح ﴿ **بلى إنه على كل شىء قدير** ﴾ لا يعجزه شىء . ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار** ﴾ الظرف متعلق بقول مقدّر ، أى يقال ذلك اليوم للذين كفروا ﴿ **أليس هذا بالحق** ﴾ وهذه الجملة هى المحكية بالقول ، والإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار ، وفى الاكتفاء بمجرد الإشارة من التهويل للمشار إليه والتفخيم لشأنه ما لا يخفى ، كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدلّ عليه ﴿**قالوا بلى وربنا** ﴾ اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف ، وأكدوا هذا الاعتراف بالقسم ؛ لأن المشاهدة هى حق اليقين الذى لا يمكن جحده ولا إنكاره ﴿ **قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ أى بسبب كفركم بهذا فى الدنيا وإنكاركم له ، وفى هذا الأمر لهم بذوق العذاب توبيخ بالغ وتهكم عظيم .

لما قرّر سبحانه الأدلة على النبوة والتوحيد والمعاد أمر رسوله بالصبر فقال : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾ والفاء جواب شرط محذوف ، أى إذا عرفت ذلك وقامت عليه البراهين ولم ينجع فى الكافرين فاصبر كما صبر أولو العزم ، أى أرباب الثبات والحزم فإنك منهم. قال مجاهد : أولو العزم من الرسل خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد

(١) البيت للشاعر عبيد بن الأبرص .

ﷺ ، وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : هم نوح وهود وإبراهيم ، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم . وقال السدىّ : هم ستة : إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد ﷺ . وقيل : نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى . وقال ابن جريج : إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب، وليس منهم يونس . وقال الشعبى والكلبى : هم الذين أمروا بالقتال، فأظهروا المكاشفة وجاهدوا الكفرة. وقيل: هم نجباء الرّسل المذكورون فى سورة الأنعام وهم ثمانية عشر : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط . واختار هذا الحسين ابن الفضل لقوله بعد ذكرهم :﴿ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام: ٩٠] . وقيل : إن الرسل كلهم أولو عزم ، وقيل : هم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بنى إسرائيل . وقال الحسن : هم أربعة : إبراهيم وموسى وداود وعيسى ﴿ **ولا تستعجل لهم** ﴾ أى لا تستعجل العذاب يا محمد للكفار. لما أمره سبحانه بالصبر ونهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا قال : ﴿ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون**﴾ من العذاب ﴿ **لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾ أى كأنهم يوم يشاهدونه فى الآخرة لم يلبثوا فى الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم . قرأ الجمهور: ﴿ **بلاغ** ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هذا الذى وعظتهم به بلاغ ، أو تلك الساعة بلاغ ، أو هذا القرآن بلاغ ، أو هو مبتدأ ، والخبر لهم الواقع بعد قوله : ﴿ **ولا تستعجل** ﴾ أى لهم بلاغ ، وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وزيد بن علىّ بلاغاً بالنصب على المصدر ، أى بلغ بلاغا ، وقرأ أبو مجلز :«بلغ » بصيغة الأمر، وقرئ :« بلغ » بصيغة الماضى ﴿ **فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿**فهل يهلك** ﴾ على البناء للمفعول ، وقرأ ابن محيصن على البناء للفاعل ، والمعنى : أنه لا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن الطاعة الواقعون فى معاصى الله . قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك مشرك . قيل : وهذه الآية أقوى آية فى الرجاء . قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن منيع ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل عن ابن مسعود قال : هبطوا ، يعنى : الجن ، على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، قالوا : صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ضلال مبين** ﴾ [(١)] . وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه عن الزبير ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن** ﴾ . قال : بنخلة ورسول الله ﷺ يصلى العشاء الآخرة ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ [الجن : ١٧] [(٢)] . وأخرج ابن جرير والطبرانى وابن مردويه [عن ابن عباس] [(٣)] :﴿ **واذ**

(١) صححه الحاكم ٢/ ٤٥٦ ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم فى الدلائل ص ٣٠٤ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٢٢٨ .

(٢) أحمد ١/ ١٦٧ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٣٢ : « ورجاله رجال الصحيح » وابن جرير ٢٦/ ٢٢ عن عكرمة عن ابن عباس .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة ، والصحيح ما أثبتناه من مراجع التخريج ، والدر المنثور ٦/ ٤٤ .

صرفنا إليك نفرا من الجن﴾ الآية . قال : كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم [١] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم عنه نحوه وقال: أتوه ببطن نخلة [٢] . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : صرفت الجنّ إلى رسول الله ﷺ مرّتين وكانوا أشراف الجن بنصيبين [٣] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبى ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ قال: آذنته بهم شجرة [٤] . وأخرج عبد بن حميد وأحمد ومسلم والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسول الله ﷺ منكم أحداً ليلة الجن ؟ قال : ما صحبه منا أحد . ولكنا فقدناه ذات ليلة ، فقلنا: اغتيل ، استطير [٥] ما فعل ؟ قال : فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم ، فلما كان فى وجه الصبح إذا نحن به يجىء من قبل حراء فأخبرناه فقال : «إنه أتانى داعى الجن ، فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم » [٦] . وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله ﷺ ليلة الجنّ ، وقد روى نحو هذا من طرق . والجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعت منه ﷺ مع الجنّ حضر إحداهما ابن مسعود ، ولم يحضر فى الأخرى . وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرة بعد مرة ، وأخذوا عنه الشرائع .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : أولو العزم من الرسل : النبى ﷺ ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى . وأخرج ابن مردويه عنه قال : هم الذين أمروا بالقتال حتى مضوا على ذلك نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان . وأخرج ابن مردويه عن جابر ابن عبد الله قال : بلغنى أن أولى العزم من الرسل كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر . وأخرج ابن أبى حاتم والديلمى عن عائشة قالت : ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طوى ، ثم ظلّ صائما ثم طوى ، ثم ظلّ صائما ، قال : « يا عائشة ، إن الدين لا ينبغى لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، فقال : ﴿ **اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾ وإنى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله » [٧] .

---

(١) ابن جرير ٢٦/ ٢٠ والطبرانى (١١٦٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع : « فأما إسناد الطبرانى فى الكبير ففيه النضر أبو عمر ، وهو متروك » .

(٢) ابن جرير ٢٦/ ٢٠ وأبو نعيم فى الدلائل ص ٣٠٨ .

(٣) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٠٩ : « وأحد إسنادى الأوسط فيه جابر الجعفى ، وهو ضعيف ، والإسناد الآخر فيه عفير بن معدان ، وهو متروك».

(٤) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٥٩) ومسلم فى الصلاة (٤٥٠/ ١٥٣) .

(٥) اغتيل : قتل سرا ، والغيلة ، بالكسر : الخديعة والاغتيال ، وقتل فلان غيلة ، أى خدعة . اللسان ١١/ ٥١٢ ، ٥١٣ . استطير : طارت به الجن . اللسان ٤/ ٥١٢ ، ٥١٣ .

(٦) أحمد ١/ ٤٣٦ ومسلم فى الصلاة (٤٥٠/ ١٥٠) والترمذى فى التفسير (٣٢٥٨) وقال : «حسن صحيح».

(٧) الديلمى (٨٦٢٨) .